الإيقاع النفسي للحرف في ظل المعنى الصوفي
أبيات من قصيدة الياقوتة لسيد الشيخ أنموذجا

رحماني فاطمة / جامعة تلمسان
أستاد مساعد أ / قسم الأدب العربي
كلية الأدب واللغات

تمهيـــد:

ينطلق المتصوف في تصوير شعوره بالتعبير عن أرق الأذواق العرفانية التي عاشها، ويحدد المعاني والأفكار الروحية ويصفها حسب ترتب الأحوال والمقامات في نفسه فكأنه يرصد حركات وسكنات اللفظ في إيقاع نفسي.

فالحرف يحمل هذا الثقل النفسي للشاعر الصوفي الذي يفرغه في تشكيل شعري يبدأ بالحرف لأن الشعر يتطلب الانسجام بين الأجزاء، وجمال القيم العرفانية والصوفية يظهر في قيمة الصوت أو الحرف وانسجامه مع بقية النسيج الشعري انسجاما إيقاعيا.

الإيقاع النفسي للحرف في ظل المعنى الصوفي:

الشاعر سيدي عبد القادر بن محمد صاحب قصيدة الياقوتة ربط اللفظ في قصيدته بالمعنى الروحي والصوفي "فالشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير[1]" فكان للشعر عنده الدلالة المعنوية والتصويرية والإيقاعية، بينت الجو الشعوري المراد تصويره، فنبدأ من المقطع الأول والذي مطلعه:

بدأت بحمد الله قصدا لنجح ما أروم من استفتاح نظم القصيدة اللفظة المحور تسلط ظلال حروفها الكثير على معاني المقطع، هي لفظة (حمد) "فمن عبقرية اللغة العربية أنها تضيف من دلالتهامقاصد كثيرة، فهناك موسيقى داخلية ناشئة من طبيعة توالي الحروف ومخارجها..." [2]. والشاعر هنا كانت بدايته "بحمد الله، فلفظة (حمد) تحمل حقيقة صوفية تكاد تكون حالا من أحوال رجال التصوف، تحمل من طاقاتهم النفسية ولشعورية وتفسيراتهم ما اختلفت فيه آراؤهم.

1- الجاحظ –الحيوان- تحقيق عبد السلام هارون-لجنة التأليف والترجمة والنشر-القاهرة-1986- د.ط-ج 03 ص 132

2- السيد قطب-النقد الأدبي أصوله ومناهجه- دار الفكر، دار الكتاب الحديث، الكويت –د ط – د ت ص 69

فتكرار حروف لفظة (حمد) في المقطع تدركه أذن المتلقي لما يثير من جرس موسيقى ناتج عن تردد صوت الحاء وصوت الميم وصوت الدال في ألفاظ كثيرة لا تخرج عن معنى الحمد، فإيقاع هذه اللفظة نحاول إدراكه من خلال هذا التعريف الذي يرى صاحبه "أن للإيقاع الفاعلية التي تنقل إلى المتلقي ذي الحساسية، الشعور بوجود حركة داخلية ذات حيوية متنامية..." [1].

فالحمد أو الشكر قرنه المولى عز وجل بالذكر إذ قال في كتابه الحكيم (فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) [2].

وقد جعل الحمد مفتاح أهل الجنة فقال: (وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده) [3]، وقال كذلك سبحانه

(وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) [4].

فالحمد كما عرفه صاحب كتاب التعريفات"الثناء على الجميل من جهة التعظيم من نعمة وغيرها

والحمد فعل يشعر بتعظيم المنعم بسبب كونه منعما" [5].

ويقصد صاحب الياقوتة من خلال استفتاح قصيدته بلفظ حمد، تعظيمه للمولى عز وجل بسبب كونه منعما لدرجة أنه يرى نجاح مقاصده قبل بدايتها ثقة من المنعم عليه بالمنعم عز وجل وأشار إلى مثل هذا أحد الشعراء بقوله:

وإني لأرجو الله حتى كأنني أرى بجميل الظن ما الله صانع وهذا ما يدل على هيئة الخضوع والتواضع للمنعم سبحانه ابتغاء لوجهه واعترافا بنعمته لا رغبة فيها وفي زيادتها فقد رآها في فضله سبحانه وتعالى، ولا رهبة فقد التمسها في عدله، وهذا ما توضحه الأبيات اللاحقة من نظم الياقوتة إذ يقول:

ويمنع من يشاء جل بعدله ويحرم فيض الفضل من غير قلة

1ـ المصطلح اللساني وتحديث العروض العربي دراسة في كتاب البنية الإيقاعية للشعر العربي للدكتور كمال أبو ديب عن مجلةفصولالقاهرة المجلد السادس، العدد الرابع سبتمبر 1986 ص05

2ـ سورة البقرة الآية 152

3ـ سورة الزمر الآية 74

4ـ سورة يونس الآية 10

5ـ الجرجاني الشريف علي بن محمدكتاب التعريفاتدار إحياء التراث العربي بيروت لبنان الطبعة الأولى 2003 ص 76

فلفظة (حمد) تتكون من ثلاث أصوات لغوية، والصوت في النظام اللغوي "رمز لمعان خاصة تأخذ استجابتها شكلا جماليا من خلال علاقات التشابك والتراكيب" [1].

فمن خلال معرفتنا لخصائص الصوت والموقف الذي يتأسس عليه المعنى "وكلما أرهفنا السمع إلى حفيف الدلالة كلما انتشرنا خارج نطاق اللغة إلى إيحاءات الرمز"[2].

فحسب تقسيمات أهل الدراسات اللغوية الحديثة (وقد جمعها الدكتور مونسي حبيب في كتابه تواتر الإبداع الشعري وبالإضافة إلى ما وضحته بعض الكتب الصوفية في معاني الحروف، فقد قيل "إن الحروف خزائن الله فيها علمه، وقدرته، وأمره، ونهيه... فاستنطاق معاني الحروف علم كبير وخطير... وإن الحروف أمة من الأمم، وإن لكل حرف سر وخاصية ووظيفة وعليه التعويل في الأمر...ألا ترى أن القرآن الكريم قد نص على ذلك حين علم الرسول صلى الله عليه وسلم نطق الحروف التي في أوائل السور القرآنية بقوله: "ألم، كهيعص، حم..."[3].

فلفظة (حمد) تبدأ بحرف الحاء الذي هو حرف شعوري مهموس رخو، أبعده حرف الميم الذي بعده عن النبرة العالية المشددة، وأعطاه بعضا من المرونة، وهو أغنى الأصوات عاطفة، وأكثرها حرارة، وأقدرها على التعبير عن خلجات القلب ورعشاته، يوحي بطعم الحلاوة[4]، وقد جاور حرف الحاء حرف الميم الذي ينتمي إلى الحاسة اللمسية، والذي يشبهه الدارسين بالمطر يوحي بذات الأحاسيس التي توضحها انطباق الشفتين من ليونة ومرونة والتماسك مع شيء من الحرارة، يوحي بالجمع والضم والكسب والرضاع والحلب والاستخراج والتوسع والامتداد والانفتاح[5]، وغير بعيد عن مجموعة الميم، حرف الدال الذي ينتمي إلى الحاسة اللمسية ويعبر عن معاني الشدة لاتصافه بالجهر[6].

1ـ حبيب مونسي – تواتر الابداع الشعري – دار الغرب للنشر والتوزيع 2001 د ط – ص 50

2ـ المرجع نفسه ص 53

3ـ عبد الغاني النابلسي إيضاح المقصود من معنى وحدة الوجود مسائل في التوحيد والتصوف تحقيق سعيد عبد الفتاح دار الأفق العربية الطبعة الأولى مدينة نصر سنة 2003 م ص 114ـ121

4ـ حبيب مونسي – تواتر الابداع الشعري ص 48 بتصرف

5ـ المرجع نفسه ص 41 بتصرف

6ـ المرجع نفسه ص 41 بتصرف

فمن خلال توالي هذه الحروف تشكل لنا اللفظة المحورية في المقطع، والتي **تتردد** مشكلة نغما إيقاعيا، نلمس من خلالها علاقة وثيقة بين تعظيم الشاعر سيدي الشيخ للمولى عز وجل والخضوع له لكونه المنعم، عبر عنها حرف الحاء لماله من قدرة على إظهار ما في خلجات القلب ورعشاته، كما أنه يوحي بطعم حلاوة النعمة، وحلاوة رضا المنعم عليه وهذا ما يوضحه البيت التالي من الياقوتة:

وبعد ففضل الله يوتيه من يشاء بمحض تفضل ومن رحمة فالفضل من المولى عز وجل ابتداء الإحسان بلا علة فمن شاء من عليه بفضله وهداه الى الطريق المستقيم، ومن لم يهده بفضله فلن تجد له وليا مرشدا، فالمنع والحرمان عدل منه سبحانه وتعالى وهو القائل: (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)[1].

وفي قول صاحب الياقوتة:

ومهما اجتبى عبدا سعيدا لقربه تخيره وذاك ليس علة
ويمنع من يشاء جل بعدله ويحرم فيض الفضل من غير قلة

فقد تحققت ظلال لفظة حمد في هذه الأبيات فالمنع والحرمان عدل منه عز وجل يوجب الحمد على هذه النعمة لحكمة منه سبحانه حيث يقول: (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض)[2].

"لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد بما يصلح للمقسوم عليه من بسط الرزق" [3].

فعلمه سبحانه وتعالى محيط بكل شيء فله حكمة تفضيل بعض الخلق على بعض، فقد قال سبحانه في سورة المائدة (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم في ما أتاكم)[4].

وهذا ما يوضح قول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى: "ربما سألني وليي المؤمن الغني فأصرفه إلى الفقر، ولو صرفته إلى الغنى لكان شرا له، وربما سألني وليي المؤمن الفقر فأصرفه إلى الغنى، ولو صرفته إلى الفقر لكان شرا له" ولذلك وجب الحمد والشكر للبارئ بعد الرضا والقناعة بمشيئة المولى عز وجل

1ـ سورة الأنبياء الآية 23

2ـ سورة النساء الآية 32.

3ـ العيدوسي عبد القادر، كتاب تشييد الأركان في ما ليس في الإمكان أبدع مما كان، هيئة التحقيق بدار الوعي، حلب، الطبع دار صادر بيروت الطبعة الثانية 2004ص389

4ـ سورة المائدة الآية 48

وحكمته في جعل كل خلق ميسر لما خلق له، فالفضل يوجب الحمد فتكاد اللفظتان (الفضل والحمد) تتمحوران حول إيقاع واحد وتسقطان نفس الظلال على المعاني، فكلا اللفظتين مصدر من فعل ثلاثي يدل على الحدث خال من الزمن، فكأن الشاعر قصد أن هذين اللفظتين غير مربوطتين بزمان، فصوت الفاء في لفظة فضل لا يخرج معناها عن الأصوات المترددة في لفظة حمد.

معنى الفاء عند الصوفية فعال لما يريد، فرد ليس له شريك وهذا ما يوجب الرضا بمشيئته ويستلزم الحمد بالضرورة، وصوت الضاد معناه ضياء السماوات والأرض وضمان المغفرة وهذا لب لفظة فضل كما أن اللام معناه أن لا اله إلا الله، فمن لم يرضى بمشيئته فليجد لنفسه الاها غيره وهذا من فضله سبحانه وتعالى أن جعل الإيمان أساسه التوحيد[1].

فقد أسقط صوت الحاء ظلاله على باقي معاني البيت ويبرز حرف الميم في لفظة (حمد) وهو أغنى الأصوات عاطفة وأكثرها حرارة لتواجده في لفظة أم التي تحمل كثيرا من معاني النعمة فالحمد وصف جميل على جهة التعظيم وليس أعظم من الأم التي خصها الله بمكانة عالية ويتوسط لفظ حمد حرف الميم الذي وصف بأنه ينتمي إلى الحاسة اللمسية فلا يكون الحمد إلا بلمس النعمة من المحمود، والنعمة عند المتصوفة هي رضا المولى عز وجل وبهذا فالحمد نصف الإيمان، وشبه الدارسون اللغويون الميم بالمطر[2]، وليس نعمة أجل وأرحم أرسلها المولى وسخرها لعباده من نعمة المطر كما يوحي هذا الحرف بالجمع والضم والكسب وهي نعم أنعمها الله على عبده فكل ما يجمع ويكسب الإنسان في حياته نعمة، ويوحي أيضا بالتوسع في رحمة الله والامتداد في ارض الله وانفتاح الأرزاق المادية والمعنوية من الله سبحانه وتعالى وهذا كله يلزم الحمد فقد رأى المتصوفة أن حرف الميم معناه مدبر، محسن، مالك يوم الدين، معبود.

فلا تخلو هذه المعاني من وجوب الحمد لمدبر رزق العباد وشؤونهم التي يعلمونها والتي لا يعلمونها ومحسن إلى عباده بفضله.

كما ختمت لفظة (حمد) بصوت الدال الذي لا يخلو كما ذكرنا من الأحاسيس اللمسية التي توحي باطمئنان المرء للمسه نعم المولى عز

1ـ عبد الغاني النابلسي،إيضاح المقصود من معنى وحدة الوجود،مسائل في التوحيد والتصوف تحقيق سعيد عبد الفتاح،ص 115 بتصرف.

2ـ حبيب مونسي –تواتر الابداع الشعري ص 40 بتصرف

وجل، إذ لا بد للعبد من العلم بعين النعمة ووجه كونها نعمة في حقه وبذات المنعم ووجود صفاته التي بها يتم الإنعام وتصل إلى المنعم عليه من المنعم بقصد وإرادة حتى في المنع والحرمان لحكمته سبحانه.
فهناك توافق بين الصوت والدلالة "وهذا ما قاله ابن جني (سوق للحروف على سمت المعني المقصود والغرض المراد) فان ارتباط الحروف بالحواس يفتح اللغة العربية على تلبية كافة متطلبات الإنسان في علاقته بنفسه، وبمحيطه وبأفكاره، ما دامت الحروف قادرة على إشاعة الكثير من الأحاسيس التي يتعذر على اللغة رفعها إلى المتلقي وكأن الحرف بهذه الاستطاعة يقوي على أن يمد اللفظ بالظلال التي تمكنه من استرفاد الدلالة التي تقع خارج اللغة نفسها"[1].
وهنا شاعرنا المتصوف قد وضع الحرف الأول بما يضاهي بداية الحدث والحرف الوسط بما يضاهي وسطه والأخير بما يضاهي نهايته، فكان بذلك يصور الأحداث والأشياء والحالات بأصوات الحروف.

فالحاء بصفتها في بداية لفظة (حمد) تعظيم وخضوع باستساغة طعم حلاوة النعمة، والميم بصفتها في وسط اللفظة توسعا امتدادا وانفتاحا ورزقا، والدال بصفاتها في آخر اللفظ اطمئنان للنعمة ورضا بمشيئة الله، فكأن هذه الحروف وترددها في باقي الأبيات، بإحداث إيقاع تستسيغه الأذن، حققت المعنى المرجو منها في المقطع ككل، وهو معنى الحمد، وهذا النشاط الإيقاعي لهذه الحروف الثلاثة اسقط ظلاله على معاني الألفاظ التي احتوت في تركيبها على احد هذه الحروف، فتردد حرف الحاء في لفظة (نجح)، والنجاح نعمة من المولى عز وجل أوجبت الحمد للمنعم، ولفظة استفتاح تحمل في ظلالها معنى النعمة، فالاستفتاح نعمة تفتح لصاحبها أبواب تمناها وهذا ما يوجب الحمد، وكلا اللفظتين صوت الحاء في آخرها لان الحمد على النعمة يبلغ أقصاه إذا بلغ العبد مراده من مولاه عز وجل، ومراد الشاعر أجل أعظم ومنتهاه بعد استفتاح العبادة بالشوق والمجاهدة والصبر، والنظر في حضرة الله عز وجل ومشاهدته وهو أقصى مطلب وآخره وأجلهوكأن الشاعر أراد أن يقول أن النجاح بالاستفتاح، ولا يكاد جرس لفظ حمد يخلو من معنى هاتين اللفظتين أما لفظ "لحظة وإحاطة وتحية" في قوله:

1ـ حبيب مونسي – تواتر الابداع الشعري ص 50

أهدي صلاة ثم أزكى تحيـــــة على المجتبى الهادي شفيع البرية
صلاة وتسليما كثيرا مجددا إحـــاطة علـــم الله في كل لحـــظة

فالتحية إلى سيد الخلق محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتراف بفضله على الأمة الإسلامية وحمدا للمولى عز وجل أنه جعله شفيع للبشرية، وأردفها في البيت الثاني بالتأكيد على الصلاة والسلام على رسول الله موافقة للآية الكريمة (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) فكما لا نهاية لعلم الله سبحانه وتعالى فكذلك لا نهاية للصلاة والسلام على سيد الخلق.

أما حرف الميم المتوسط لفظة (حمد) فتردد في مواضع كثيرة فمن ألفاظ لا يبعد تكرار معانيها عن جرس لفظة (حمد)، وهي (أروم، النظم، رحمة، المجتبى)، فما يتمناه الناظم قد حمد المولى عز وجل عليه وهذا دليل على قوة رجائه في أن يتم الحق مراده من هذا النظم وهذا ما تحمله صفات حرف الميم في لفظتي (أروم، النظم)، وكذا لفظة (رحمة) تحمل جرس حرف الميم الذي تنتبه إليه الأذن عند تردده في البيت والرحمة هي إرادة إيصال الخير وذلك يوجب الحمد من العباد.

أما الحرف الأخير (الدال) فتردد هذا الصوت في ألفاظ كثيرة غير بعيدة عن جرس حروف لفظة (حمد) وهي (قصدا، بدأت، الهادي، مجددا، عبدا، سعيدا، عدل) فبداية القصد بالحمد ظهرت في مطلع القصيدة وأوجبت الحمد، كما أن لفظة (هادي) لا تخرج عن هذا المعنى، فالهادي دلالة على من يوصل إلى الناس المطلوب من الأوامر والنواهي، وإذا وصل المطلوب وكان معه الرضا اوجب الحمد والشكر، (مجددا) لفظ قصد به الشاعر تجديد الصلاة والسلام على النبي الكريم حمدا على نعمة الهداية، والعبد هو المكلف على خلاف هوى نفسه بأمر ربه فيوجب ذلك الرضا بمشيئة خالقه، والحمد الدائم على نعمته كذا لفظة (سعيدا) لا نخرجها عن إيقاع حروف لفظة (حمد) لأن نعمة السعادة بقرب المولى عز وجل، توجب الحمد كله فهي مبتغى كل متصوف.

فنلاحظ في هذا المقطع أن ظلال لفظة (حمد) بسطت خصائص حروف هذه اللفظة وصفاتها على الأداء المعنوي والذي وظفه الإبداع الشعوري والروح الصوفية للشاعر سيدي عبد القادر بن محمد، وأسقطت هذه الحروف بترددها في الأبيات الستة الأولى من نظم الياقوتة إيقاعا تستقطبه أذن المتلقي وظلالا كثيرة لعمق هذا المعنى

(حمد)، وهذا ما كانت بذرته الأولى عند "ابن سنان الخفاجي حين رأى أن الحروف أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر" [1].
وننتقل من مقدمة النظم إلى التجربة سيدي عبد القادر بن محمد الصوفية، فلا نخرج عن نطاق البحث عن اللفظ المحوري الذي اسقط جرس حروفه ظلاله على المعاني الصوفية، من خلال التردد في تركيب وانسجام وثيق ندرك من خلاله الطاقة الشعورية والوجدانية لهذا المتصوف "فالتعبير هو الفن وهو الجمال وهو التعبير باطني داخلي... يتجسد في أشكال مختلفة ولا فرق فيه بين الأشكال والمضامين...فهي جميعا شيء واحد...[فالشكل] هو الذي حدد النمو الداخلي لهذا المضمون" [2].
"وأن الإيقاع لا ينمو في المظاهر الخارجية للنغم كالقافية والجناس وتزاوج الحروف وتنافرها بل يتجاوزها إلى الأسرار التي تصل فيما بين النفس والكلمة بين الإنسان والحياة" [3].
فتكاد هذه النظريات التي استخلصها النقد العربي قديمه وحديثه في دراسته للموروث الشعري العربي واضحة جلية في نظم سيدي عبد القادر بن محمد، فمن خلال هذا المقطع نلحظ ان اللفظة المحورية هي لفظة (سير) فيقول الشاعر في هذا المقطع:

ولما رأيت القوم جدوا في سيرهم إلى مقصد الأسمى بصدق العزيمة
جـرت للتأسي نفسـي ثم تعلقت بأذيـال أربـاب النفـوس الأبية
وحـامت على حماهم ثم خيمت معرسهـم فزاحمتهـم لشركـة
ولما تفاوضنا المشورة بيننـا برمـا عقـودا بالعهود الوثيقة
تبايعنـا بيع البت ليس كبيع من يـرى البخـس ثم ينثني بالإقالة

والسير عند الصوفية هو السفر"فالسفر قطع المسافة وشرعا هو الخروج على قصد السير ثلاثة أيام ولياليها فما فوقها بسير الإبل ومشي الأقدام"[4].

1ـ حبيب مونسي تواتر الإبداع الشعري ص 53
2ـ أحمد السيد الصاوي – النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني الهيئة العامة للنشر والتوزيع ن الاسكندرية – 1979 – د ط ص 312
3ـ احمد المعداوي أزمة الحداثة في الشعر العربي الحديث منشورات دار الأفق الجديد المغرب الطبعة الأولى سنة 993 ص 29
4ـ الجرجاني الشريف علي بن محمد كتاب التعريفات ص 99

فالمتصوفة يبتعدون بهذا اللفظ عن معنى السير المعروف إلى معنى السير أو السفر الصوفي، فالسفر عند هم هو سير القلب عند أخذه في التوجه إلى الحق بالذكر أول سفر عندهم "هو رفع حجب الكثرة عن وجه الوحدة، وهو السير إلى الله من منازل النفس بإزالة التعشق من المظاهر والأغيار، إلى أن يصل العبد إلى الأفق المبين وهو نهاية مقام القلب"[1].

فبهذا كل عمل الإنسان مرده إلى قلبه فالقلب يوصف بالحياة وبضدها "القلب الصحيح هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله بقلب سليم مصداقا لقوله سبحانه وتعالى (يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم)، والقلب السليم هو كل قلب سلم من الشهوات التي تخالف أمر الله، ومعالجته من كل الأمراض وآفات الدنيا وحبها الذي هو رأس كل خطيئة وانفراده بالإخلاص في حب الله "بتجريد الإخلاص... بتحقيق المتابعة وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص وهوى يعارض الإتباع"[2].

"فان العمل المتقبل شرطين احدهما أن يكون خالصا لله وحده والآخر أن يكون صوابا موافقا للشريعة فمتى كان خالصا ولم يكن صوابا: لم يتقبل"[3].

فالسير إلى تصفية القلب وعلاجه من الأمراض ليكون سليما لا يتأتى إلا بالإتباع والاقتداء بأهل العلم بالله قصد القيام بحق العبودية وطلب التقرب إلى الله عز وجل.

فبهذا يتأتى معنى البيتين السابع والثامن:

ولما رأيت القوم جدوا في سيرهم
إلى مقصد الأسمى بصدق العزيمة
جـــرت للتأسي نفســـي ثم تعلقت
بأذيال أرباب النفوس الأبية في نية

سيدي عبد القادر بن محمد إتباع طريق الأوليين في جدهم في السير إلى بارئهم وعزيمتهم التي توحي بإرادة مؤكدة.

1- المصدر نفسه ص 99

2- بن قيم الجوزيتاغاثة اللهفان في مصائد الشيطان –تحقيق علي ابن حسن ابن علي عبد الحميد الحلبي الأثريدار النشر دار ابن الجوزي للتوزيع الطبعة الاولى 1424هـ ص 43

3- على هامش كتاب العريفاتتفسير بن كثير الجزء 01 ص 231

فالسين عند أهل اللغة صوت ينتمي إلى الحاسة البصرية فهو صوت "يوحي بإحساس لمسي بين النعومة والملامسة وبإحساس بصري بين الانزلاق والامتداد، وبإحساس سمعي هو اقرب للهمس، يوحي بالتحرك والمسير وعلى الخفاء والاستقرار، وعلى الامتداد إلى الأعلى وعلى اللين والرقة" وعند استقراء تواتره أولا وأخيرا كان في بداية المصادر أوحى ما يكون بالتحرك والمسير وإذا كان في نهايتها فهو أوحى ما يكون على الخفاء والاستقرار"[1].

"أما الياء فلا يخرج عن هذه المجموعة هو حرف من الحروف اللينة، الجوفية يبدو في أول الكلمة وكأنه يصعد من حفرة بشيء من المشقة والجهد، وفي وسط الكلمة يكون معناها المطلب الذي يعترض طيران، وفي آخره الاستقرار"[2].

وحرف الراء لا يحيد عن هذه المجموعة المنتمية إلى الحاسة البصرية "فهو صوت مجهور متوسط الشدة والرخاوة شكله يشبه الرأس، أشبه ما يكون بالمفاصل من الجسد، وحاجة اللغة لحرف الراء لا تقل عن حاجة الجسد للمفاصل، ولولاه لفقدت لغتنا بالتالي الكثير من مرونتها وحيويتها وقدرتها الحركية، ولفقدت بالتالي الكثير من رشاقتها، يدل على التحرك والتكرار والترجيع وعلى الرقة والنضارة والرخاوة... وعلى الثبات والاستقرار والربط وضم الأشياء"[3].

فالربط بين الجو الشعوري الصوفي المراد تصويره وإيقاع هذه الحروف يظهر في لفظة سير.

فالحروف أرواح ووظيفة التعبير الجيد أن يطلق هذه الأرواح في جوها الملائم لطبيعتها فنستطيع الإيحاء الكامل والتعبير المثير.

فجدية سير أهل التصوف وشيوخه وسفرهم من منازل النفس إلى الأفق المبين بتصفية القلب وجعله سليما، واضحة في جرس حرف السين، الذي يحمل معنى الانزلاق عن دناءة النفس البشرية، والامتداد في المكارم الحميدة، والصفات التي تكسب القلب وصف السليم، وهذا ما يوحي بالتحرك والمسير نحو الاستقرار، فيكاد شعور الصوفي سيدي عبد القادر بن محمد في هذا المقطع مرتبطا ارتباطا وثيقا بمعاني حرف السن وهذا واضح جلي في قوله (لما رأيت القوم) أي قصده تحرك البصر نحوهم للاقتداء بهم في سير أرواحهم وقلوبهم إلى

1ـ حبيب مونسي –تواتر الابداع الشعري ص50

2ـ المرجع نفسه ص 48

3ـ المرجع نفسه ص 47 بتصرف

المولى عز وجل ومن الملاحظ أن لفظه (مقصد) في البيت السابع لا تخلو من حرف الصاد الذي هو تفخيم لحرف السين، فهذا المقصد هو اجل مقصد عند الصوفية الوصول بالسير من عالم الدنيا إلى الحق سبحانه وتعالى، ورفع الحجب عن وجه الوحدة لا يكون إلا بالصفاء والنقاء وهو من بين المعاني الدال عليها حرف الصاد.

كما أن لفظة اسنى، والتي تحمل معنى رفعة وعظمة هذا السير الذي يتأهب إليه صاحب الياقوتة وتحركه نحو المقصد الأعلى، هو امتلاء القلب بذكر الله والسفر بالحق إلىً الحق، تحمل هذه اللفظة معاني حرف السين من امتداد إلى الحق بلا نهاية واستقرار العبد عند الوصول إلى الحق في مقام حضرة المولى عز وجل، أما لفظة (صدق) كما رأينا فحرف الصاد فيها لا يبعد عن حرف لحركة السير بقوة، للمسير بالسرعة، فلفظة صدق تحمل كل هذه المعاني فحركة الشاعر بالذكر قوية بجلالة مقصده وسريعة بحبه الوصول إلى منية نفسه، وشفاء قلبه من الأسقام فيجب أن يكون كالإعصار في محو الصفات الدنيئة الدنيوية، ويقدح قلبه نارا بحب صفات الكمال التي بها وصوله إلى الحق، فيكون سيره وسفره بصدق عن إرادة مؤكدة ويكون قد توجه إلى الحق تعالى بالذكر، وهذا ما لا تخلو منه لفظة (صدق).

أما البيت الموالي يدل على حركة المسير بقوله (جرت لتأسي نفسي)، فلفظة (التأسي) يتوسطها حرف السن والمقصود بها الاقتداء بأهل الدراية والعلم، فالشاعر هنا بعيد عن الابتداع متمسك بالاقتداء بما شرع الله ورسوله الكريم، فالاقتداء لا يكون إلا بالسير والحركة، ومعنى حرف السين في (سير) لا يبتعد كثيرا عن معنى حرف السين في (تأسي) فقد بين سرعة استجابة الجوارح للاقتداء بالشريعة ثم الاستقرار بالتعلق بما دعت إليه تعاليم الأولين من المتصوفة، والذين سماهم أرباب النفوس الأبية، فالسين يوحي بإحساس لمسي تمثل في تمسك الشاعر ولمسه الوثيق والواثق بما ترك أهل التصوف الأولين، ومن المعروف عنه انه ممن بعث بتعاليم الإمام الشاذلي حتى سميت طريقته البوشيخية فجر الطريقة الشاذلية فكان اقتداءه بأئمة التصوف الأعلام أمثال أبي مدين شعيب، الإمام جنيد وغيرهم، بالسند والتسلسل إلى أن وصل الاقتداء إلى باب مدينة العلوم كما وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم سيدنا الإمام علي كرم الله وجهه، فقد قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[1].

1ـ عبد الغاني النابلسي المقصود من معنى وحدة الوجود ص 110

فحرف السين في لفظة تأسي يوحي بالامتداد إلى الأعلى عن طريق الاقتداء بمن شهد لهم بمراتب أعلى في تصوفهم وأخذهم للشريعة.
ومعنى حرف السين في (نفس والنفوس) في البيت الثامن يوحي بالحركة والسير فالنفس هي"الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية"[1].
ومن أنواع النفس، النفس المطمئنة التي تم نورها بنور القلب حتى انخلعت عن صفاته الذميمة، وتخلقت بالأخلاق الحميدة، وهنا معنى من معاني حرف السين وهو الانزلاق عن النفس الذميمة، وكذا معنى الاستقرار، استقرار الأخلاق الحميدة كما أن الحركة الإرادية للنفس الفطنة لهذا الشاعر جعلتها تتعلق وتقتفي اثر النفوس الأبية الحاملة لمعنى القوة والحياة والاستقرار. فحرف السين في الألفاظ (سير، أسنى، نفس، النفوس، التأسي) تحمل نفس المعانيو التي لا تخرج عن معنى السفر. كما لا يخلو حرف الصاد من نفس المواصفات في لفظة (صدق، مقصد) فالكل يعبر عن تحرك وسرعة وامتداد إلى الأعلى وانزلاق عن المذموم وأخيرا استقرار، والذي تكاد توضحه لفظة (معرسهم) حيث تسقط عليها ظلال المعاني السابقة الذكر وهذا ما يوضحه قول صاحب الياقوتة:

وحامت على حماهم ثم خيمت معرسهـــــم فزاحمتهم لشركة

فهذه النفس المطمئنة الفطنة المقتدية والحاملة لمعاني القوة والحياة والحركة والاستقرار لا تخرج عن معنى السير والسفر للوصول إلى المقام الأعلى، فحامت حول الحمى الذي له حدود لا يجب أن تتجاوزها هذه النفس المتصفة بالصدق واليقظة والقدرة على هذا السير الشاق، الذي هو محاربة حب الدنيا بكل ما فيها واكتفاء القلب بالصفات الحميدة للوصول إلى الصفاء، والذي هو وسيلة للمشاهدة، والتي هي مطلب كل متصوف، فالشاعر استطاع بعد السير والاقتداء والاستقرار في معرض أهل الولاية والتصوف ومزاحمتهم قصد مشاركتهم طرق الذكر.
فالحمى يقصد بها الشاعر"الطريق الذي هو عبارة عن مراسم الحق تعالى المشروعة لا رخصة فيها"[2].

1- الجرجاني الشريف علي بن محمد كتاب التعريفات ص 196
2- الكلاباذي التعرف لمذهب اهل التصوف – حققه أحمد شمس الدين منشورات علي بيضون دار الكتب العلمية –بيروت سنة 2001 د ط ص 30

فأذكار الصوفية وسيرهم في الحق إلى الأفق الأعلى، بأن يكون سير القلب عند الأخذ في التوجه إلى الحق بالذكر "فتكون في جلال الله وهيبته ومنته وإحسانه، فهي تذكر فيما لله تعالى إجلالا له، وتعرض كما لها عند الله حرمة له، في قوله عليه السلام خبرا عن الله عز وجل "من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين"[1].

فمن هنا لم يخرج جرس لقطة سير وجرس حرف (س) الذي تردد وتكرر إيقاعه في المقطوعة، فأعطى هذا الإيقاع الجو الشعوري الذي يريد تصويره الشاعر بلفت النظر إلى المواضع الدقيقة والحساسة في مفهوم السير عند السادة الصوفية وربطها بالحقائق عرفانية التي تمثلت في رفض الدنيا وتركها بالسفر عنها والسير إلى الحضرة الإلهية في استقرار القلب بالإخلاص والتوحيد والاقتداء.

أما حرف الياء فقد تردد إيقاعه في الألفاظ التالية (أذيال، الأبية، خيمت، بيننا، تبايعنا، بيع، برية، ينثني) فلا تخرج عن ظلال إيقاع حرف الياء في هذه الألفاظ، فلفظة أذيال تحمل معنى حرف الياء الذي يوحي بأن صاحبه يصعد من حفرة بشيء من المشقة والجهد.

فتواضع المريد قهر لنفسه، وا بعاد لها عن الغرور، فرأى أن إتباع أهل العلم والتصوف الأولين واقتفاء أثرهم واقتفاء الأثر يوحي بمشقة الأمر ووجوب بذل الجهد الكبير حتى يكون صاحب الياقوتة على مستوى شيوخه الذين اقتدى بهم والذين مرجعهم ما شرع الله ورسوله الكريم مصداقا لقوله تعالى (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)[2].

كما تردد حرف الياء في لفظة (الأبية) نعت للنفوس، أي الممتنعة عن كل ما يكون سببا في رقها من الأهواء، وهذا المعنى في حرف الياء يعني الصعود والطيران عن النفس الأمارة بالسوء، المتبعة للأهواء، واستقرار صفات النفس المطمئنة الراضية المرضية، وهي صفات أهل الصفاء ممن كان لهم الفضل في ترسيخ هذا العلم الوجداني العرفاني.

أما لفظة (خيمت)، فجرس حرف الياء هنا لا يخلو من معنى السير أو السفر فبعد السفر لابد من استقرار ولو مؤقت، وهذا ما يسميه أصحاب التصوف المقامات والأحوال، ففي سفر شيخنا سيدي عبد القادر بن محمد من منازل النفس إلى الحضرة إلهية بمجاهدة القلب بالذكر والصفاء يستقر حاله في مقام من مقامات التصوف ليبدأ السير من جديد إلى مقام آخر.

1ـ المصدر نفسه ص 32

2ـ سورة الأحزاب الآية الكريمة 21

أما لفظة (بيننا) ظرف مكان يحمل معنى الاستقرار في مقام الحضرة إلهية وتفاوضه على حمل مثل هذا الأمر الجليل بالانزلاق عن أمور الدنيا والوصول إلى المقصد الأسمى. فالمقام ما توصل ا ليه صاحب الياقوتة "بنوع تصرف، وتحقق به بضرب تطلب، فمقام كل واحد موضع إقامته عند ذلك"[1].

وهذا ما جعل صاحب الياقوتة بعد المفاوضة والمشورة "قد أزال التقييد بقيد الظاهر الباطن وسار في الفرق إلى عين الجمع والحضرة الأحادية وهي نهاية الولاية"[2]، وبعد "فالكلمات مهما كان تركيبها هي منظومات يصدر عنها صوت"[3]، فحرف الياء في لفظتي (تبايعنا وبيع) يسقط نفس الظلال ويحوم حول اللفظ المحوري للمقطوعة (سير)، فالبيع الذي يقصده صاحب الياقوتة في البيت الأخير من هذا المقطع:

تبايعنا بيع البيت ليس كبيع من يرى البخس ثم ينثني بالإقـالة

فسفر الشاعر إلى الحق أوجب عليه بيع كل أمور الدنيا، وشهوات النفس بالسير إلى التزام جهاد النفس والصبر على طاعة الله ظاهرا وباطنا وهو الانزلاق من الدناءة والاستقرار في العلو والسير إلى المقصد الأسمى، مصداقا لقوله تعالى: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة).

وفي عرف البائع والمشتري إذا ظهر عيب في السلعة المباعة، فيرجع الثمن للمشتري والبضاعة للبائع.

لكن استقرار الشاعر في سفره وسيره بأن قطع العهد مع الله ووقع العقد الذي لا يوجب الانقطاع، فما كان لله دام وما كان لغير الله انقطع وانفصل شان أمور الدنيا الزائلة قال الشاعر:

ألا كل شيء ماخلا الله باطـل وكل نعيم لا محالة زائـــــل[4]

في حين الحرف الأخير من لفظة سير وهو صوت الراء الذي تكرر في كثير من ألفاظ المقطوعة.

1ـ الجرجاني كتاب التعريفات ص 122

2ـ عبد الله طواهرية الياقوتة مطبعة الاطلال وجدة المغرب 1992 ـ د ط ص 48

3ـ مجلة بيان الثقافة، الاحد 24 ذي القعدة 1412 الموافق ل 18 فبراير 2001، العدد 58، مقال لأحمد المجاطي، البنية الإيقاعية في ديوان الفروسية ص 13

4ـ عبد الله طواهرية الياقوتة ص 51

"فان الشعر في مجمله يتكون من كلمات، والقصيدة هي تجميع لألفاظ على نحوما لكن الأفضلية تظل في السياق لما يروم الشاعر أن يبرهن على أهميته..... وقد تكرر الكلمة أحيانا في إطار نوع من الاختلاف لكن حروف هذه تتكرر خفية في كلمة أخرى"[1].

فتكرار حرف الراء، في (رأيت، جرت، أرباب، معرس، شركة، المشورة، برمنا، يرى) هذا الحرف (الراء) أعطى المقطع مرونة وحيوية، فمعناه يتضمن القدرة الحركية وهذا ما يتطلبه السير والسفر للانتقال من حال إلى حال، والوصول إلى المقصد الأسمى، وهو حضرة المولى عز وجل، فالراء في (رأيت) تجسد حركة البصر والبصيرة، للالتفات إلى الأولين من أهل العلوم والاقتداء بهم، والراء في (جرت) تبين المرونة والتحرك نحو ما سار إليه السادة الصوفية الأولون.

ولفظ (الأرباب) لا يخرج فيها معنى حرف الراء عن معنى السير الذي نهايته الاستقرار والثبات، فاستقرار أهل التصوف بصفاء سيرتهم، وثبات مبادئهم وأفكارهم العرفانية والروحية، أما (معرس) فيوحي باستقرار الشاعر في مقام الاجتهاد للوصول إلى مقام أفضل تمثل في ذكره للفظة (شركة) والتي توحي بالربط وضم الأشياء، وهذا ما لا يخلو منه معنى حرف الراء، أما لفظة (المشورة) والتي توحي بمرونة فكر الشاعر واعتماده على التعلم والأخذ برأي أهل الذكر، كما أن لفظة (برمنا) عمادها الربط والضم الأشياء بعزيمة وحزم وما نلحظه أن معنى السير أو السفر الصوفي جسدته حروف لفظة (سير) في كامل المقطع، فالخروج عن أمور الدنيا والسير إلى حضرة المولى عز وجل لا يكون إلا عن طريق الصفاء لأن المشاهدة غاية والصفاء وسيلة، وبعد وصول الشاعر إلى حضرة إلهية بدوام الذكر والصفاء، يذكر الشاعر ما صار عليه من اتبع طريق أرباب النفوس الأبية، ومازلنا نبحث عن إيقاع الحروف وما تسقطه من ظلال على المعاني "فالأصوات التي تشترك في الصفات تهيمن على بعضها بحسب الموقع الذي تحتله في الكلمة" وتكرارها ثانيا وثالثا... غير أننا نعجب أمام حركية الحروف العربية وهي تعمل على هذا النحو العجيب في

1- مجلة بيان الثقافة، العدد 58 –، مقال لأحمد المجاطي، البنية الإيقاعية في ديوان الفروسية ص 05.

صناعة الألفاظ، يحدوها في ذلك روح العبقرية التي تختص بها العربية دون سائر اللغات"[1] فقول صاحب الياقوتة:

فصرنا وصاروا حلف صدق وودناه* وداد النهى ذوي الصدورالسليمة

نلاحظ تردد حرف الصاد والصيرورة ملازمة لحال المقام الذي وصل إليه الشاعر، وهذا ما يوحي به حرف الصاد "فهو صوت اشد تماسكا"[2]، واستقراره في هذا المقام يدل على الصفاء والنقاء لأن مقام العارفين لا يكون إلا بهما ولأن قوة الروح وصلابتها أمام أهواء النفس والشيطان لا تكون إلا لمتصوف زاهد مثل سيدي عبد القادر بن محمد. فحرف الصاد يعبر عن مقام صوفي كامل وتكراره في لفظة (صدق وصدور) يبن ما صار إليه أهل التصوف بعد تحالفهم على إتباع طريق الهدى والتي لا نجاح إلا بإتباعها.
فحرف الصاد في صدق يوحي بالعزم والصلابة والصبر، ليكون مقام الشاعر في حضرة المولى عز وجل أزليا كما أن لفظة (صدور)، والتي تعبر عن القلب السليم، لا تخلو من هذه المعاني الجليلة، والمتمثلة في النقاء والصفاء مع القوة والصلابة في الحق وبالحق، ومما يلاحظ أن تردد لفظة (صرنا) في مقابلها ترددت لفظة (ود) "ودادنا وداد النهى" ومن ذلك تردد حرف الدال في اللفظتين السابقتين (صدق وصدور) تؤديان نفس المعنى فالدال يدل على الصلابة، ويعبر عن معاني الشدة، فهذا الحلف الصوفي الذي صار في حضرة المولى عز وجل عن طريق صفاء الصدور وسلامة القلوب من كل دنيء والمودة والمحبة في الله، وهذا الود الخالي من المصالح والأمور الدنيوي لا يكون إلا من أصحاب العقول، وأساسه التواصي بالحق والتواصي بالصبر بالصدق، والذي وصفه أهل التصوف "أن لا يكون في أحوالك شوب، ولا في اعتقادك ريب"[3].
"فالعربي الذي أبدع الحرف، أبدعه انطلاقا من تجانس هذا الأخير مع الهيئة التي يرومها العربي للتعبير عن المعنى الذي يريد الإفصاح عنه ومن ثم كان الحرف في وجود على رأس اللفظ دالا على المعنى الذي سيكونه اللفظ عند إتمام حروفه... فانه سيشيع في اللفظ كثيرا من

1- حبيب مونسي- تواتر الابداع الشعري ص 49-
2- المرجع نفسه ص 47
3- عبد الله طواهرية- الياقوتة ص 51

معانيه... نعتقد ان دور الصوت المفرد لا يستهان به في تقرير المعنى الابتدائي للكلمة"[1].

ونلاحظ في البيت الموالي:

وبعد تعاطينا الموائد نبتغي فنون العلوم يا لها من عطية

بعد استقرار الشاعر في مقام إتباع أهل التصوف والاقتداء بهم وبعد الإخلاص والتوجه إلى الحق سبحانه وتعالى يأتي دور الانشغال بالعلوم والذي عبر عنه الشاعر بلفظة التعاطي ومعناها الخوض في الأمر حتى يصبح عادة لا يستطيع الصوفي الاستغناء عنها والملاحظ أن جرس الحرف المكرر إيقاعه في البيت تمثل في حرف العين الذي وصفه أهل اللغة بأنه "جمع لنفسه خلاصة ما في خيار أصوات الحروف العربية من خصائص ومعان"[2].

فهذا الحرف يوحي بالفاعلية والإشراق والظهور والسمو وهذا ما يتطلبه المدمن على تعاطي أنواع العلوم التي أمر بها المولى عز وجل وذلك بعد إقامته في مقام الزهد في الدنيا مصداقا لقوله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)[3].

«فيثير قوة الشهود منه اجتهادا فيه وإقبالا عليه وتحملا لأثقاله»[4] وتعاطي العلوم يقصد بها الشاعر اجلها وهي ما اتصل بالتصوف من علم التوحيد خاصة وقد قال سهل بن عبد الله: «أول مقام في المعرفة أن يعطي العبد يقينا في سره تسكن به جوارحه، وتوكلا في جوارحه يسلم به في دنياه، وحياة في قلبه يفوز بها في عقباه»[5].

سيدي عبد القادر بن محمد بقوله (يا لها من عطية) وهنا نلاحظ تكرر حرف العين في اللفظة عطية وعلوم حيث أن جرس حرف العين يظهر جليا متمثلا في إشراق قلب العارف بهذه العلوم، والسمو بها لأنها فتح من المولى عز وجل وتوفيق بفضل الله عز وجل وكذا من المعاني التي بحملها حرف العين معنى الثقل وليس أثقل وزنا من تتبع العلم والصبر على تحصيله.

1ـ حبيب مونسي ـ تواتر الابداع الشعري ص 49ـ50

2ـ المرجع نفسه ص49

3ـ سورة العنكبوت الآية الكريمة 69

4ـ الجرجاني الشريف علي ابن محمد ـ كتاب التعريفات ص 158

5ـ الإمام القشيري ـ الرسالة القشيرية بيروت ـ دار احياء التراث العربي ـ ط 1ـ 1998 ص 157

وسيدي عبد القادر بن محمد دأب كل متصوف، همه الوصول إلى معرفة الله عز وجل وطريقه علم التوحيد، فقد قال الشيبلي عنه «من اطلع على ذرة من علم التوحيد ضعف عن حمل نفسه لثقل ما حمله»[1].

وكما وصفها صاحب الرسالة القشرية «المعرفة على لسان العلماء هو العلم، فكل علم معرفة وكل معرفة علم وكل عالم بالله عارف، وكل عارف عالم، وعند هؤلاء القوم المعرفة صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ثم صدق الله تعالى في معاملاته، ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته ثم طال بالباب وقوفه ودام بالقلب اعتكاف فحظي من الله تعالى بجميل إقباله وصدق الله في جميع أحواله وانقطع عنه هواجس نفسه ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره فإذا صار من الخلق أجنبيا ومن آفات نفسه بريا ومن المساكنات والملاحظات نقيا ودام في سر مع الله تعالى إلى مناجاته وحق في كل لحظة إليه رجوعه وصار محدثا من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره فيما يجريه من تصاريف اقدره يسمى عند ذلك عارفا وتسمى حالته معرفة»[2]. وهذه الموائد التي قصدها سيدي عبد القادر بن محمد في البيت هي موائد من خلالها يطلب العلوم بتوفيق من المولى عز وجل، فحرف العين في لفظة (تعاطينا وعطية) وعلوم يحمل كل هذه المعاني التي رامها صاحب الياقوتة فإيقاع حرف العين الذي يتكرر وبتكراره تأنس الأذن يذهب إلى حمل معان صوفية جليلة فحرف العين "حرف متوسط الشدة...يدل على الشدة والصلابة والقطع والثقل والضخامة..."[3].

يسقط ظلاله في جو شعوري وجداني على معاني الشدة في طلب العلم والاتصاف بالصفات التي اشترطها أهل التصوف في العارف لجلالة ما يصبو إليه كما يتطلب من العارف الصلابة والصبر وقطع أمور الدنيا وخواطر النفس فمن الملاحظ أن هذه الصفات الصلابة والشدة والثقل والضخامة لا تخلو منها لفظة علوم وخاصة إذا كان العلم الجليل الذي هو هم الصوفي ولفظة (عطية) والتي تشير إلى أن هذه العلوم هبة من المولى عز وجل يهبها من يشاء جعلت حرف العين لا يخرج اللفظة عن معناه بل يحمل اللفظ من معنى الحرف الكثير، وبعد أن وقف صاحب الياقوتة على باب فنون العلوم واتصف بصفات

1- المرجع نفسه ص 379

2- المصدر نفسه ص 380

3- حبيب مونسي تواتر الابداع الشعري ص 49

العارف يوضح حال الوجد والشوق الذي لا نهاية له لان أمر الحق لا نهاية له قائلا:

فلما أدمـــرت الأبـــــارق بيننا من الشوق تتلوها كؤوس المحبة
ونحن نشاوى نلتقي شرب خمرها كلتـــــا اليدين في الواني المعدة
وحين انتهى بنا الشراب على الذي فضاه لنـــا الرحمن وفق المشيئة
سكرنا وهمنا بالشراب فبينمـــــا أنا بين حـــــال غيبة وإفاقـــــة
دعيت هلم فاستمعت دعـــــاؤه فلبيته إذا بحســـــن الإجـــــابة

فكما ذكر صاحب الرسالة القشيرية صفاء معاملاتهم يوجب لهم ذوق المعاني وهي ما وصفها بالأباريق "فالذوق في معرفة الله عبارة عن نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه، يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره"[1].
فهذا الذوق في المعاني بعد صفاء معاملاتهم يوجب لهم وفاء منازلاتهم وهي المحبة والتي وصفها "الجنيد بإفراط الميل بلا نيل"[2].
وهذا مقصد صاحب الياقوتة بان الذوق باردات الأباريق لا يخلو منها الشوق إلى المحبوب الذي لا ينال أبدا، فالمتصوف في شوق دائم لا يهدأ إلا باللقاء فالشوق يؤدي إلى القلق والاضطراب وإن لم يكن هذا الاضطراب لا يكون التصوف يقول الإمام أبو حامد الغزالي "وقد كان إبراهيم بن ادهم من المشتاقين فقال قلت ذات يوم يا رب إن أعطيت أحدا من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطيني ذلك، فقد اضر بي القلق فقال: فرأيت في المنام أنه أو قفني بين يديه وقال يا إبراهيم أما استحيت مني إن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي؟ وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه"[3].
وهذا ما جعل صاحب الياقوتة يتبع الشوق الذي لا ينطفئ إلى المولى عز وجل بكؤوس المحبة، فمايزال العبد تائها في حب الله هائما به مشتاقا إليه حتى لقائه فقد قال ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم "من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه" رواه البخاري وقال في ذلك

1ـ الجرجاني الشريف علي ابن محمد كتاب التعريفات ص 88
2ـ الإمام القشيري الرسالة القشيرية ص 401
3ـ أبو حامد الغزالي إحياء علوم الدين ج 14 تحقيق عبد المعطي أمين القلعجي – دار صادر – بيروت ط 2 سنة 2004 ص 90

أبويزيد "إن لله عبادا لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار"[1].

ومن خلال هذه الأبيات نلاحظ جرس إيقاع الحرفين القاف والشين، تكاد أذن السامع تستقطب إيقاع هذين الحرفين وتنتظر تكررهما، فهنا المتصوف الشاعر"يخترق صوتية الحرف محاولا بذلك استعادة بهجة الكلمة ووهج الصوت المعبر عن التواصل الحميم بين ظل الفكرة وظواهر الأشياء"[2].

فحرف الشين عند أهل اللغة "صورة الشمس يدل على البعثرة والانتشار والتشتت والاضطراب ويدل على الخلط والتجميع العشوائي"[3].

ويسقط هذا الحرف ظلال معانيه على معاني الصوفية التي أرادها صاحب الياقوتة، فلفظ شوق تدل على التوهان والبعثرة وتشتت الفكر واضطراب النفس وهذا ما ينتج عن شوق المحب لمحبوبه سبحانه وتعالى فيستغرق صاحب الياقوتة في المحبة بذكر شرب الخمر بكلتا اليدين، ويذكر صاحب الرسالة القشيرية إن الحب حرفان (حاء) و(باء) والإشارة فيه" ان من احب فليخرج عن روحه وبدنه، قال وهذا ما قاله احد شعراء التصوف:

ولـــما ادعيت الحب قـــالت:

كذبتني فمالي أرى الأعضاء منك كواسيا
فمـــا الحب حتى يلصق القلب با حشا
وتذبل حتى لا تجيب المناديـــــــــــــــا
وتنحـــــــل حتى لا يبقى لك الهـــــوى
سوى مقلة تبكي بها وتناجيـــــــــــــا

وهذه المعاناة الصوفية يوضحها حرف السين الذي يحمل معنى الانتشار، كما ان حرف القاف في لفظة (شوق) والذي يوصف بأنه "يوحي بالصلابة والشدة والفاعلية وعلى القطع والقشر والكسر"[4] يوضحه معنى الشوق الذي وصفه الصوفية بان علامته حب الموت مع الراحة فهنا شدة وصلابة في طلب الموت من اجل لقاء الحبيب.

1ـ الإمام القشيري،الرسالة القشيرية،ص 409
2ـ د.مصطفى الكيلاني،جريدة الدستور،الأردن 28ـ06ـ2002 ص17
3ـ حبيب مونسي،تواتر الإبداع الشعري ص 45
4ـ المرجع نفسه ص46

وكما أن علامة الشوق قطع الجوارح عن الشهوات وهذا ما يحمله معنى حرف القاف وقد تكرر إيقاعه في لفظة أباريق والتي هي تذوق المعاني الروحية التي يشتاق إليها قلب العارف وقد ذكر هذا اللفظ في سورة الواقعة في قوله سبحانه وتعالى (يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق)[1].

"فالأكواب أقداح لا عرى لها، الأباريق لها عرى وخراطيم والكأس إناء شرب الخمر من معين أي خمر جارية من منبع لا ينقطع"[2].حاء من الروح والباء من البدن"[3]. فالذوق عند أهل التصوف أول مبادئ التجليات الإلهية، فتذوق هذه المعاني الروحية وما تسببه من اشتياق يهيم فيه صاحبه حتى لا يرى له اثر ولا قرار فعلى قدر المحبة يكون الشوق، ورغم اضطراب المشتاق إلى ربه فان صاحب الياقوتة يوضح تصبر المتصوف وصلابته أمام هذا الوجد، يقطع كل حب غير حب الله سبحانه وتعالى ويقشر قلبه من كل دنيء دنيوي ليلتقط الحكمة الإلهية والأحوال الربانية وهي المعرفة التي يطلق عليها أهل التصوف الخمر، ونعود إلى إيقاع حرف القاف في لفظة نلتقي والتي تعبر على أن هذا الحب للمولى عز وجل قدر سابق في علمه سبحانه وتعالى ومشيئته عز وجل في أن الصوفي ينتقل من حال إلى حال، وانه مهما ارتقى في مقامه فانه دائم الطموح إلى مقام ارفع من الأول.

فالشاعر دائم القلق في مرحلة الشوق فهو لن يرتاح ما لم يتم الوصال بمحبوبه فنلاحظ صبر سيدي عبد القادر بن محمد على هذا الشوق بالرضا بما قضاه المولى عز وجل وهذا ما تحمله لفظة (قضاه) التي لا تخلو من جرس حرف القاف فتردد هذا الحرف في الأبيات اكسبها نوعا من الحس الموسيقي الواضح للمتلقي.

1ـ سورة الواقعة الآية الكريمة 19ـ20

2ـ الإمامان جلال الدين محمد احمد المحلي، جلال الدين عبد الرحمن اليوطي،تفسير الجلالين،دار الفكر للنشر والتوزيع ص 577

3ـ الإمام القشيري،الرسالة القشيرية ص 405

الخـــاتمة

فالحرف المتردد في هذه المقاطع من قصيدة الياقوتة يحمل ذلك الشعور النفسي للمتصوف الشاعر، يمكن من خلاله استقراء أحوال النفس العارفة والمقامات التي عرجت عليها، فاستقرءنا هيئة الشاعر ومزاجه وتعابيره التي كان الحرف شاهدا عليها.

المراجع والمصادر

1. القران الكريم
2. الجاحظ- الحيوان- تحقيق عبد السلام هارون- لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة- 1986 -د.ط
3. السيد قطب- النقد الأدبي أصوله ومناهجه- دار الفكر، دار الكتاب الحديث، الكويت – د ط – د ت
4. حبيب مونسي- تواتر الابداع ال- دار الغرب للنشر والتوزيع-2001 د ط شعري
5. عبد الغاني النابلسي- إيضاح المقصود من معنى وحدة الوجود-مسائل في التوحيد والتصوف-تحقيق سعيد عبد الفتاح- دار الأفق العربية الطبعة الأولى مدينة نصر سنة 2003
6. العيدوسي عبد القادر، كتاب تشييد الأركان في ما ليس في الإمكان أبدع مما كان، هيئة التحقيق بدار الوعي، حلب، الطبع دار صادر بيروت الطبعة الثانية 2004
7. أحمد السيد الصاوي – النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني- الهيئة العامة للنشر والتوزيع ن الاسكندرية –1979 – د ط
8. احمد المعداوي- أزمة الحداثة في الشعر العربي الحديث-منشورات دار الأفق الجديد المغرب الطبعة الأولى سنة 1993م
9. ابن قيم الجوزية- اغاثة اللهفان في مصائد الشيطان -تحقيق علي ابن حسن ابن علي عبد الحميد الحلبي الأثري-دار النشر دار ابن الجوزي للتوزيع الطبعة الاولى 1424هـ
10. الكلاباذي- التعرف لمذهب اهل التصوف- حققه أحمد شمس الدين منشورات علي بيضون دار الكتب العلمية -بيروت- سنة 2001 -د ط
11. عبد الله طواهرية الياقوتة مطبعة الاطلال-وجدة-المغرب-1992 -دط
12. مجلة بيان الثقافة، الاحد 24 ذي القعدة 1412 الموافق لـ 18فبراير 2001، العدد 58، مقال لأحمد المجاطي، البنية الإيقاعية في ديوان الفروسية.
13. الإمام القشيري-الرسالة القشيرية بيروت-دار احياء التراث العربي-ط1-1998
14. د.مصطفى الكيلاني-جريدة الدستور-الأردن 28-06-2002
15. أبو حامد الغزالي-إحياء علوم الدين ج 14 تحقيق عبد المعطي أمين القلعجي – دار صادر -بيروت- ط 2 سنة 2004

رفض ما بعدها من علل ثوان وثوالث: "فالعلل الثواني مستغنى عنها لا تفيدنا".[1]

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الأنباري (أبو البركات)

1-نزهة الألباء في طبقات الأدباء، مصر، 1294هـ.

2-أسرار العربية، تحقيق: محمد بهجت البيطار، دمشق، 1957.

- ابن جني (أبو الفتح عثمان)

3-الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، ط1، دار الكتب، القاهرة، 1952-1956.

- ابن السراج (محمد)

4-كتاب الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، بغداد، مؤسسة الرسالة، 1985.

- الجابر (محمد عابد)

5- بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 1987.

- حسان (تمام)

6- اللغة بين المعيارية والوصفية، مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة الرسالة، 1958.

- حسن (عباس)

7- اللغة والنحو بين القديم والحديث، دار المعارف بمصر، د.ت.

- الزبيدي (أبو بكر)

8- طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، مصر، 1984.

- الزجاجي (أبو القاسم)

9- الإيضاح في علل النحو، تحقيق: مازن المبارك، ط2، دار النفائس، بيروت، 1973.

- سيبويه (أبو بشر)

10- الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط1، دار الجيل، بيروت، 1991.

- السيوطي (جلال الدين)

---

1 ـ المصدر نفسه، ص: 152.

11- الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق، أحمد محمد قاسم، القاهرة، 1976.
• المبارك (مازن)
12- العلة النحوية: نشأتها وتطورها، ط3، دار الفكر، بيروت، 1974.
• الملخ (حسن خميس سعيد)
13- نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين، دار الشروق للنشر، عمان، الأردن، 2000.
• المهيري (عبد القادر)
14-نظرات في التراث العربي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1993.
15- "التعليل ونظام اللغة"، حوليات الجامعة التونسية، العدد 22، تونس، 1983.
16- من الكلمة إلى الجملة -بحث في منهج النحاة، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1998.